اسم المادة الدراسية : الأدب العباسي (الشعر).

اسم المادة باللغة الانكليزية : Abbasid Literature of poetry

(المحاضرة السابعة)

عنوان المحاضرة : بشار بن برد .

التدريسي ولقبه العلمي : أ.د. محمد عويد محمد الساير

المرحلة الدراسية : الثالثة

محاضرة : ٧

أعلام الشعراء

١ – بشار

ولد بشار بن برد بن يرجوح بالبصرة لأوائل العقد العاشر من القرن الأول للهجرة. وجدّه يرجوخ من طخارستان ممن سباهم المهلب بن أبى صفرة والى خراسان (٧٩ – ٨١ هـ). ومن أجل ذلك نشأ ابنه برد على الرقّ. وكان أولا فى عداد رقيق خيرة القشيرية امرأة المهلب، ثم وهبته لامرأة من بنى عقيل، وفى ملكها ولد له بشار على الرق، ولم تلبث العقيلية أن أعتقت بردا. وبذلك عدّ هو وابنه فى موالى بنى عقيل. وقد نسب نفسه من جهة أمه إلى الروم، إذ يقول :

وقيصر خالى إذا ...عددت يوما نسبى

وإن صح ذلك كان فارسى الأب رومى الأم، وقد ذكرها حماد عجرد فى بعض أهاجيه لبشار باسم غزالة ، وقد ولدته أعمى فما نظر إلى الدنيا قط، وفى ذلك يقول :

عميت جنينا والذكاء من العمى ...فجئت عجيب الظّنّ للعلم موئلا

وكان أبوه طيّانا يعيش من ضرب اللّبن معيشة تقوم على الشظف، ويقال إنه كان له أخوان: بشر وبشير، وكانا قصّابين يبيعان اللحم، ولم يكونا سويّين إذ كان أحدهما أعرج والآخر أبتر اليد.

وحدّدت آفة بشار حياته منذ نعومة أظفاره، فاتجه إلى المساجد وإلى مربد البصرة ينهل من حلقات العلم والشعر، وأعانته نشأته فى بنى عقيل على أن يتمثل السليقة العربية. ولم يكد يبلغ العاشرة حتى أخذ ينبوع الشعر يسيل على لسانه.

وكان الهجاء حينئذ يضطرم فى موطنه اضطراما لا بين جرير والفرزدق فقط، بل بين جميع الشعراء، فكان طبيعيّا أن يكون أول موضوع ينظم فيه الغلام. ويقال إن أباه كان يضربه بسببه ضربا مبرحا لكثرة ما يشكو الناس منه، وكانت أمه لا تزال تستعطفه عليه، فيقول: إنى لأرحمه، ولكنه يتعرض للناس، فقال له بشار: قل لهم: أليس الله يقول: (ليس على الأعمى حرج). وعادوا إلى برد يرددون شكواهم، فتلا عليهم الآية الكريمة، فانصرفوا وهم يقولون: فقه برد أغيظ لنا من شعر بشار. واشتد ببشار طموحه إلى إتقان العربية، فيمّم نحو البادية، فأقام فيها فترة مكّنت له فى عربية لسانه وفقهه الدقيق باللغة وشئون البادية.

وعاد إلى البصرة يكثر من الاختلاف إلى حلقات المتكلمين ومجالسهم، كما يكثر من النظم فى المديح وغير المديح، ومن أقدم مدائحه ما نظمه فى عبد الله بن عمر بن عبد العزيز والى العراق لسنة ١٢٦ للهجرة . ولما خطب واصل بن عطاء رأس المعتزلة بين يدى هذا الوالى مع بعض الخطباء البلغاء أشاد به وببيانه طويلا ، مما يدل على أن صلة وثيقة كانت منعقدة بينهما، وفى الأغانى أنه كان يحضر مجالسه ويستمع إلى محاوراته مع من يعتنقون مذاهب الثّنويّة المجوسية والدهرية الهندية ، وأكبر الظن أنه تسرب إليه من هذه المجالس وما يماثلها من مجالس المتكلمين شئ من الفلسفة والمنطق، على أن الأمور لم تلبث أن فسدت بينه وبين

واصل إذ عرف فيه أنه يدين بالرّجعة أو عودة الإمام المختفى ويكفّر جميع الأمة، وتتابع منه ما يشهد على إلحاده من مثل قوله يشيد بعبادة النار وأنها أفضل من الأرض والطين :

زندقة :

الأرض مظلمة والنار مشرقة ...والنار معبودة مذ كانت النار

وتمادى يفضّل إبليس المخلوق من النار على آدم المخلوق من الطين، قائلا :

إبليس أفضل من أبيكم آدم ...فتنبّهوا يا معشر الفجّار

النار عنصره وآدم طينة ...والطين لا يسمو سموّ النار

مضى يعلن زندقته لا يزدجر مصرحا بأنه لا يؤمن إلا بالعيان وما شهده الحسن . فهو لا يؤمن بجنة ولا نار ولا ببعث ولا حساب، ويحاول أن يثير الغبار فى وجه واصل وغيره من المعتزلة،

فيعلن أنه يعارض ما يذهبون إليه من أن الإنسان يخلق أفعاله، ويقول إنه جبرىّ، بل لا شئ سوى الجبر وتعطيل الإرادة الإنسانية .

ولم تلبث رايات العباسيين السوداء أن أقبلت فى سنة ١٣١ للهجرة من خراسان، وطوّحت جيوشهم ببنى أمية ووالِيهم يزيد، وانعقد لسان بشار شاعر خصومهم فلم يستطع أن يفد على السفاح ولا على المنصور، وكان نجم خالد بن برمك آخذا فى التألق إذ استوزره المنصور ثم ولاه ولاية فارس، وكأنما رأى فيه بشار لحمة نسب تصله به إذ كان إيرانيّا مثله، فوفد عليه يمدحه، وخالد يجزل له فى العطاء والإكرام . ويحس بشار فى عمق بإقبال الدنيا عليه، فيتغنّى بشعوبيته ويفخر بقومه الفرس فخرا مسرفا.

ويعود إلى البصرة بعد وفاة عمرو بن عبيد، ولا يكاد العام يستدير حتى يثور العلويون بزعامة إبراهيم بن عبد الله سنة ١٤٥ للهجرة، ويخيل إليه أن الانتصار من إبراهيم وثورته قاب قوسين أو أدنى فيمدحه بقصيدة ميمية رائعة، وسرعان ما يخيب فأله، إذ قمع المنصور الثورة، ويمارع بشار فيحدث تغييرات فى القصيدة، ويجعلها فى مديحه ، غير أنه لا يستطيع الوفود عليه. ويأخذ منذ هذا التاريخ فى مديح ولاة البصرة، وخاصة سلم بن قتيبة الباهلى الذى وليها لخمسة أشهر فى سنتى ١٤٥ و ١٤٦ وعقبة بن سلم الهنائى الأزدى الذى وليها لأربع سنوات من سنة ١٤٧ إلى سنة ١٥١.

ويمضى بشار فى غزله الفاجر، وكان كل شئ فيه ينفّر المرأة، إذ كان قبيح المنظر مجدور الوجه جاحظ العينين قد تغشّاهما لحم أحمر، ولعل هذا القبح ونفور النساء منه هو الذى كان يستثير عنده الغريزة النوعية ويدفعه إلى الإفراط من غزله المكشوف. على أن هذا الغزل نفسه جعل بعض بنات الهوى اللائى كانت تكتظ بهن دور القيان يقبلن عليه ويتغنين فى شعره. وفى هذه الأثناء يصطدم بجماد عجرد وتنشب بينهما معركة هجاء حامية الوطيس.

ويتوفّى المنصور سنة ١٥٨ للهجرة ويخلفه المهدى فتطمح نفسه إلى الوفادة عليه والحصول على جوائزه، ويقدم بغداد ويلجأ إلى يزيد بن مزيد الشيبانى القائد الممدّح المشهور كى يذكره للمهدى ويدخله عليه، ويظهر أن يزيد كان يعرف سيرته فأخذ يسوّفه، غير أن قائدا آخر هو روح بن حاتم بلغه خبره وكأنما كان يود لو يصبح من ممدوحيه، فتبرّع بذكره للمهدى متلطفا، فأمر بإحضاره، ولم يكد يفرغ من إنشاده مدحته التى أعدّها حتى وصله بعشرة آلاف درهم ووهب له عبدا وقينة وخلع عليه خلعا كثيرة ، وجعله من سمّاره ومن يحضرون مجالسه .

وكانت فى المهدى شدة فى شئون الدين وانتهى إليه من غير وجه أن بشارا يفسد النساء والشباب بغزله الفاضح، فأمره أن يكفّ عن ذلك، وكفّ بشار على مضض، وأخذ يردد فى أشعاره أنه ترك الغزل والنسيب نزولا على إرادة الخليفة من مثل قوله :

ا منظرا حسنا رأيته ...من وجه جارية فديته

بعثت إلىّ تسومنى ...برد الشباب وقد طويته

والله ربّ محمّد ...ما إن غدرت ولا نويته

أمسكت عنك وربما ...عرض البلاء وما ابتغيته

إن الخليفة قد أبى ...وإذا أبى شيئا أبيته

ونهانى الملك الهما ...م عن النّسيب وما عصيته

وكان ذلك يؤذى الخليفة منه إذ كان يراه لا يكفّ عن الغزل، وترامت إليه زندقته وما يغرق فيه من مجون، فحرمه جائزته، ولا نصل إلى سنة ١٦٦ حتى يتعقب المهدى الزنادقة ويقتل منهم خلقا كثيرا، ويلزم بشار البصرة إشفاقا على نفسه، غير أنه لا يصمت، بل يأخذ فى رثاء أصدقائه الذين يقتلون على الزندقة ، ويهجو المهدى ووزيره يعقوب بن داود هجاء مقذعا ويقدم المهدى إلى البصرة فى سنة ١٦٨ فيشهد أمامه شهود موثّقون بأن بشارا زنديق، حينئذ يأمر بضربه حتى التلف، فيضرب سبعين سوطا يموت على إثرها ويرمى به فى البطيحة، ويجئ بعض أهله فيحملونه ويدفنونه.

كما يستلهم الكلاميين فى قوة البرهان والحجة، فإذا هو يقول :

إذا كنت فى كل الأمور معاتبا ...صديقك لم تلق الذى لا تعاتبه

فعش واحدا أوصل أخاك فإنه ...مقارف ذنب مرة ومجانبه

إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى ...ظمئت وأىّ الناس تصفو مشاربه

ونمضى معه فى وصف مشاهد الصحراء وصفا حيّا، حتى إذا انتهى منه فخر بقيس مواليه وما يذيقون به أعداءهم من بأسهم الشديد حتى ليمحقونهم محقا، يقول:

إذا الملك الجبّار صعّر خدّه ...مشينا إليه بالسيوف نعاتبه

وكنا إذا دبّ العدوّ لسخطنا ...وراقبنا فى ظاهر لا نراقبه

ركبنا له جهرا بكل مثقّف ...وأبيض تستسقى الدّماء مضاربه

غدونا له والشمس فى خدر أمّها ...تطالعنا والظّلّ لم يجر ذائبه

بضرب يذوق الموت من ذاق طعمه ...وتدرك من نجىّ الفرار مثالبه

كأن مثار النّقع فوق رءوسنا ...وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

معانى هذه الأبيات، وهو يردّ من بعض الوجوه إلى مزاج بشار الفارسى الذى أدّى به إلى المبالغة ومجاوزة القصد الذى يعدّ من مميزات الطبع العربى الخالص، كما يردّ إلى محاولة الإبداع فى التصوير، ويروى أن الأصمعى وقف متعجبا إزاء البيت السابع وأنه قال: «ولد بشار أعمى فما نظر إلى الدنيا قط، وكان يشبّه الأشياء بعضها ببعض فى شعره فيأتى بما لا يقدر البصراء أن يأتوا بمثله».

ومهما يكن فقد استطاع بشار فى مديحه أن يضيف إلى العناصر البدوية القديمة عناصر مستحدثة، وهى تبدو قليلة فى قصائده الأموية، وكلما أوغلنا معه فى العصر العباسى أحسسنا بنموها، فقد أخذ يتخفف من مشاهد الصحراء ومن المقدمات الطللية مكتفيا بالغزل. ولما أمره المهدى بالكفّ عن الغزل الماجن أخذ يردد–كما أسلفنا–فى مطالع بعض مدائحه له أنه سيكفّ عن الغزل نزولا على مشيئته. وكان قد وصف السفينة فى إحدى مدائحه لابن هبيرة، ونراه يعود إلى ذلك مرارا فى بعض مدائحه للمهدى، وكأنه يريد أن يضيف إلى المقدمات الطللية القديمة مقدمة جديدة من بيئته. وقد عكف على معانى المديح القديمة يولّد فيها ويفرّع ويستنبط دقائق كثيرة من مثل قوله فى خالد بن برمك يصف سماحته ونائله الغمر :

إذا جئته للحمد أشرق وجهه ...إليك وأعطاك الكرامة بالحمد

مفيد ومتلاف سبيل تراثه ...إذا ما غدا أو راح كالجزر والمدّ

مديح:

إنما لذّة الجواد بن سلم ...فى عطاء ومركب للقاء

كخراج السماء سيب يديه ...لقريب ونازح الدار نائى

ليس يعطيك للرجاء ولا الخو ...ف ولكن يلذّ طعم العطاء

يسقط الطير حيث ينتشر الحـ ...بّ وتغشى مازل الكرماء

لا يهاب الوغى ولا يعبد الما ...ل ولكن يهينه للثناء

فخر :

افتخارا يحاول به أن يبلغ عنان السماء على نحو ما رأينا فى قصيدته البائية وعلى شاكلة قوله :

إذا ما غضبنا غضبة مضريّة ...هتكنا حجاب الشّمس أو تمطر الدّما

إذا ما أعرنا سيّدا من قبيلة ...ذرى منبر صلّى علينا وسلّما

وإذا مضينا معه إلى العصر العباسى، عصر انتصار الفرس على العرب وجدنا شعوره بالعصبية القبلية يتحول إلى شعور جديد بالعصبية الجنسية، فإذا هو يفاخر العرب بماضى قومه التليد، وإذا هو يتحول شعوبيّا مارقا يتغنّى بأمجاد قومه الحضارية كافرا بالعرب والعروبة، وتصوّر هذه النزعة عنده أدق تصوير قصيدته :

شعوبية :

هل من رسول مخبر ...عنى جميع العرب

وهى صياح وضجيج بتصوير أبّهة الملك الفارسى وأيضا الملك الرومى، إذ زعم أن الروم أخواله، هاتفا هتافا مقذعا بالعرب ومعيشتهم البدوية الخشنة.

واصطدم بشار بكثير من الشعراء، وجرّ عليه هذا الاصطدام بلاء كثيرا وخاصة من حماد عجرد الذى سلقه بلسانه، وأصلاه بناره، مما جعل معارك هجائيه عنيفة تنشب بين الوعلين على نحو ما مر بنا فى الفصل السابق وهى معارك كانت تستخدم فيها غالبا مقطوعات قصيرة، تشبه أدقّ الشبه سهاما مسمومة، وقد اختلفت أنواع السموم التى كانا يغمسانها فيها، فتارة يعمدان إلى التهوين والتحقير، وتارة يعمدان إلى انتهاك العرض وقذف الزوجات والأخوات والأمهات، مع محاولة كل منهما تلطيخ صاحبه بتهمة الزندقة. ومما نسوقه من ذلك قول بشار فى أم حماد :

إذا سئلت لم تكن كزّة ...ولكن تذوب ولا تجمد

خمر :

ربّ كأس كالسّلسبيل تعلّا ...ت بها والعيون عنى نيام

حبست للشّراة فى بيت رأس ...عتّقت عانسا عليها الختام

نفحت نفحة فهزّت نديمى ...بنسيم وانشقّ عنها الزّكام

المصادر والمراجع:

- تاريخ الادب العربي في العصر العباسي الاول : د. شوقي ضيف ، دار المعارف – الاسكندرية ، ١٩٨٦.
- تاريخ الادب العربي في العصر العباسي الثاني : د. شوقي ضيف ، دار المعارف – الاسكندرية ،

.١٩٨٦

- الادب العربي في العصر العباسي : د. ناظم رشيد ، دار الكتب الوطنية – العراق ، ١٩٩٠.
- تاريخ الادب العربي : كارل بروكلمان ، نقله الى العربية : عبد الحليم النجار ، دار المعارف – الاسكندرية ، (د.ت.)
- تاريخ الأدب العربي : د.عمر فروخ ، دار العلم للملايين – بيروت ، ط٤ ، ١٩٨١.
- ديوان الشاعر المتنبي .
- ديوان الشاعر ابي تمام .
- ديوان الشاعر البحتري .
- ديوان الشاعر ابي نواس .
- ديوان الشاعر العباس بن الاحنف .
- ديوان الشاعر الشريف الرضي .
- ديوان الشاعر بشار بن برد .
- ديوان الشاعر ابن الرومي .